



د. محمد عبد العزيز الطالب

استاذ مساعد بكلية الآداب - قسم علم النفس
جامعة ام درمان الاسلامية
abuaziz1996@hotmail.com

ثلة في ركب يضربون في وهاد المجد ونجوعه، يعطشون أكباد النوق النوبية، وحاديهم
نجماً بازغاً، وبالنجم هم يهتدون، ما لانت عزيمتهم، وكيف تلين؟؟ وحاديهم نجم السعد وبه يهتدون،
ولا فترت مساعيهم وكيف تفتت؟؟ وهاديهم نجم الوعد وبه يستبشرون، ولا ضعفت لهم همّة وكيف
تضعف وقائدهم نجم البشارة وبه يسعدون، طائر (السمر) الأنيق، غيببت سحب المجهول نجمهم،
فززلت الفجيرة قلوبهم، فللفاعجة سطوة على قلوب المحبين، وألجمت الواقعة ألسنتهم وللواقعة شرح
في وجدان المریدين، باتوا في حال وأضحوا في حالٍ آخر، باتوا يستشرفون على ضوء نجمهم
صباح الوطن المحمول على أجنحة الموهبة وكفوف الإبداع، باتوا ينتفسون لهفة على فجر الوطن
الشامخ بفضل نخب العقول وصفوتها، وما زالوا بالنجم هم يهتدون، باتوا يقبضون شمس الأحلام
المشروعة بيمين الأمل والتفاؤل، ويمسكون قمر الإنجاز بيسار الثقة بالذات والشجاعة والإقدام،
وكيف لا؟ وبنجم السعد هم يهتدون. التحفوا القيم وتوسّدوا الفضائل وتدثروا المحبة والوثام، والعزم
ماضٍ والقرائح تنقد والروح تضح فألاً ويقين، هكذا كانوا، وكيف لا يكونوا؟؟ والرائد لم يكذب
أهله. هكذا باتوا .. وهكذا أصبحوا غيببت سحائب المجهول نجمهم الهادي فانقلبوا يعتمرون كوفيه
الحيرة، وتحتلهم مشاعر الصدمة، فانطوا على أنفسهم واجمين.

المفكر الخليفة ... وثورة الربيع النفساني (1)

معالم مشروع فكري ورؤية نهضوية

عمر هارون الخليفة النجم الذي به اهتدينا، طائر السمر الأنيق، ليس هو مجرد أستاذ جامعي
متخصص في علم ما زال يزاحم العلوم ويقف على أمشاطه بغية أن يرى النور من بين أكتافها
العريضة المتطاولة، وليس هو محض نفساني عتيق المعرفة مسلوب الذات والإرادة والهوية أمام
النص المستجلب والموروث العريق، بل هو مدرسة علمية تامة العناصر، وهو مفكر يمتلك رؤية
مكتملة الزوايا، وهو صاحب مشروع ثوري شجاع، مشروع تقوده الرؤية ويحدوه الذهن الوقاد

غيببت سحب المجهول
بخمهم، فززلت الفجيرة
قلوبهم، فللفاعجة سطوة
على قلوب المحبين،
وألجمت الواقعة ألسنتهم
وللواقعة شرح في وجدان
المریدين

ليس هو مجرد أستاذ
جامعي متخصص في علم
ما زال يزاحم العلوم ويقف
على أمشاطه بغية أن
يرى النور من بين
أكتافها العريضة
المتطاولة، وليس هو محض
نفساني عتيق المعرفة
مسلوب الذات والإرادة
والهوية أمام النص
المستجلب والموروث
العريق

هو مدرسة علمية تامة
العناصر، وهو مفكر يمتلك
رؤية مكتملة الزوايا، وهو
صاحب مشروع ثوري
شجاع، مشروع تقوده
الرؤية ويحدوه الذهن
الوقاد وتلهمه الروح
الذكية، وتوجهه الأخلاق
النبية

وتلهمه الروح الذكية، وتوجهه الأخلاق النبيلة، ويحكم أهدافه ويحدد مساره الانتماء والغيرة على وطنه السودان وعالمه العربي الكبير. عمر هارون الخليفة النجم الذي به اهتدينا، طائر السمبر الأنيق، هو مشروع فكري كبير قام على عدة أسس هي:

تثوير علم النفس: تبدو معالم هذه الثورة في رؤيته الصادمة والصريحة والتي يعتقد فيها أن مشكل علم النفس في السودان والوطن العربي تتمثل في علماء النفس أنفسهم وهو يؤمن أنهم المشكلة وأنهم الحل، هم وليس بأيدي سواهم يصنع التاريخ

لذا فهو ينتقد محتوى المناهج النفسية ويركز أنهم لا تلبي احتياجات البناء المهني لطالب علم النفس، وقد وثق ذلك من خلال كتابه مأزق علماء النفس في التعليم الحالي

عمل مشروع الخليفة الفكري على تحدي كبير، تمثل في اعتقاده الجازم بأنه يجب أن يصل علم النفس إلى مرحلة مساهمة في صنع السياسات على مستوى الدولة ويكون ذلك بالثورة على حالة اليأس والانكسار التي عانى منها علم النفس تاريخياً ويبدو ذلك في مشروعاته العلمية التي خصص لها رئيس الجمهورية بالسودان جلسة استماع بحضور عدد من الوزراء والمسؤولين، واستطاع من خلال عرضه المقنع أن يحصل على قرارات رئاسية أهمها إنشاء الهيئة القومية لرعاية الموهوبين، وقرار تعميم تجربة اليوسيماس، وظل مؤمناً وداعياً لتوظيف علم النفس في رسم السياسات.

اعتقد الخليفة وعمل بجد واجتهاد من أجل فتح مجالات تطبيقية جديدة لعلم النفس تستوعب هذا الاهتمام في كتابه الشهير علم النفس والمخبرات

• **تثوير علم النفس:** تبدو معالم هذه الثورة في رؤيته الصادمة والصريحة والتي يعتقد فيها أن مشكل علم النفس في السودان والوطن العربي تتمثل في علماء النفس أنفسهم وهو يؤمن أنهم المشكلة وأنهم الحل، هم وليس بأيدي سواهم يصنع التاريخ، وهي رؤية تقوم على دلالة الآية الكريمة "(إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ) الرعد:11، لذا فهو ينتقد محتوى المناهج النفسية ويرى أنهم لا تلبي احتياجات البناء المهني لطالب علم النفس، وقد وثق ذلك من خلال كتابه مأزق علماء النفس في التعليم العالي، وهو في ذلك لا يقف موقف الناقد بل يطرح البدائل والحلول.

• **الإيمان الراسخ بدور علم النفس في رسم السياسات:** عمل مشروع الخليفة الفكري على تحدي كبير، تمثل في اعتقاده الجازم بأنه يجب أن يصل علم النفس إلى مرحلة مساهمة في صنع السياسات على مستوى الدولة ويكون ذلك بالثورة على حالة اليأس والانكسار التي عانى منها علم النفس تاريخياً ويبدو ذلك في مشروعاته العلمية التي خصص لها رئيس الجمهورية بالسودان جلسة استماع بحضور عدد من الوزراء والمسؤولين، واستطاع من خلال عرضه المقنع أن يحصل على قرارات رئاسية أهمها إنشاء الهيئة القومية لرعاية الموهوبين، وقرار تعميم تجربة اليوسيماس، وظل مؤمناً وداعياً لتوظيف علم النفس في رسم السياسات.

• **اجتراف آفاق تطبيقية جديدة لعلم النفس:** اعتقد الخليفة وعمل بجد واجتهاد من أجل فتح مجالات تطبيقية جديدة لعلم النفس تستوعب الخدمات النفسية ويظهر هذا الاهتمام في كتابه الشهير علم النفس والمخبرات، كما يظهر في إعداده ورئاسته لمؤتمر علم النفس التطبيقي في السودان في العام 2003م، وفي غير ذلك من أعماله. ويرتبط هذا المحور من مشروع الخليفة الفكري بتصوره الشامل لعلم النفس بوصفه علماً يملك مفاتيح أبواب النهضة الشاملة، وأنه علم يمكن من خلال توظيفه أن يؤسس لرؤية استراتيجية للنهوض بالأمة تقوم على هندسة السلوك وتعديله وفق المخططات الإستراتيجية.

بتصوّره الشامل لعلم النفس بوصفه علماً يملك مفاتيح أبواب النهضة الشاملة، وأنه علم يمكن من خلال توظيفه أن تؤسس لرؤية استراتيجية للنهوض بالأمة تقوم على هندسة السلوك وتعديله وفق المخططات الإستراتيجية

يعتقد أن السبيل الأوحدهنضة الأمة يتمثل في حسن رعاية واستثمار ادمنتها النابهة الموهوبه، ولم يكن ذلك الاعتقاد محض ترف فكري بل حفق يؤسس لمشروعات ضخمة تعنى برعاية الموهبة أبرزها مشروع جائزة السمير

الدعوة إلى توخين العلوم النفسية علامة المميزة لمشروع الخليفة، فالخليفة يعتقد أنه يجب أن نتج معرفة نفسية تخدم قضايا ذات الخصوصية المحلية كما يجب أن نكيّف المعرفة المستجلبه لتناسب الواقع المحلي وثقافتنا الخاصة

نال كتابه توخين علم النفس في العالم العربي جائزة البروفيسور عبد الستار إبراهيم لشبكة العلوم النفسية العربية 2010م

- **الرهان على الموهوبين والمتفوقين:** وهذا المرتكز الفكري يمثل أهم عناصر المشروع الفكري للخليفة، فهو يعتقد أن السبيل الأوحدهنضة الأمة يتمثل في حسن رعاية واستثمار ادمنتها النابهة الموهوبه، ولم يكن ذلك الاعتقاد محض ترف فكري بل طفق يؤسس لمشروعات ضخمة تعنى برعاية الموهبة أبرزها مشروع طائر السمير، ذلك الشروع الذي اتخذ فيه طائر السمير رمزاً لمشروعه النهضوي فهو الطائر الذي يزف مقدمه البشارة بمقدم موسم الأمطار حيث يعم الخير باخضرار الزرع ودرّ الضرع في الثقافة السودانية، ليعبر بقوة ودلالة عميقة عن إيمانه بأن الخير والنهضة ستكون على يد موهبي الوطن، وقد نجح مشروعه وقامت في السودان العديد من مدارس الموهبة والتفوق تقف شاهدة على مضاء عزيمة الرجل ووضوح رؤيته وواقعية مشروعه.
- **توطين علم النفس:** الدعوة إلى توطين العلوم النفسية علامة المميزة لمشروع الخليفة، فالخليفة يعتقد أنه يجب أن نتج معرفة نفسية تخدم قضايا ذات الخصوصية المحلية كما يجب أن نكيّف المعرفة المستجلبه لتناسب الواقع المحلي وثقافتنا الخاصة وقد نال كتابه توطين علم النفس في العالم العربي جائزة البروفيسور عبد الستار إبراهيم لشبكة العلوم النفسية العربية 2010م. والخليفة في هذا الجانب يعتز بترائه العربي الإسلامي في علم النفس وينتمى له بقوة ورسوخ، ولكنه في ذات الوقت يفتح بروح شفاف على التجارب العالمية ومنجزاتها، وكأنه في ذلك يتمثل مقولة المهاتما غاندي الشهيرة "سأفتح نوافذ لكل الرياح من الجهات الأربع ولكن لن أسمح لها أن تقتلني من جذوري".
- **الاتصال الجيلي والنحت في التراث:** لم يكن مشروع هارون الفكري منبثاً عن أصوله التراثية سواء التراث العربي القديم أو التراث العلمي الحديث، لقد كان مشروعاً ثورياً متصلاً، واقفاً على أرض صلبة، ضارباً جذوره في أعماق التاريخ العلمي، فلقد وقف هارون -رد الله غيبته- على معظم كتب التراث في المجال النفسي، وأطلع على المئات من المخطوطات العلمية القيمة محققاً ومستنبطاً ليثمر ذلك اكتشافه لأول تجربة سيكولوجية في تاريخ علم النفس التجريبي ترجع للقرن الحادي عشر الميلادي وذلك في كتاب المناظر لابن الهيثم، ليعيد ترتيب التاريخ وتصحيحه ويرد الاعتبار للتراث العلمي

يعتز بتراثه العرَبِيّ الإسلاميّ في علم النفس وينتمك له بقوة ورسوخ، ولكنه في ذات الوقت يفتح بروح شفاف على التجارب العالمية ومنجزاتها، وكأنه في ذلك يتمثل مقولة المهاتما غاندي الشهيرة " سأفتح نوافذك لكل الرياح من الجهات الأربع ولكن لن أسمح لها أن تقتلعني من جذوري "

لم يكن مشروع هارون الفكريّ منبثاً عن أصوله التراثية سواء التراث العرَبِيّ القديم أو التراث العلميّ الحديث، لقد كان مشروعاً ثورياً متصلاً واقفاً على أرض طلبة، ضارباً جذوره في أعماق التاريخ العلميّ

استمر مشروع هارون متصلاً متوجاً لمسيرة مدرسة الخرخوم النفسية وليضع بصماته البارزة في تاريخ هذه المدرسة ليكون ثالث ثلاثة تميّزت مساهماتهم في إثراء مدرسة الخرخوم كميّاً ونوعياً

الإسلامي، حيث أنه من المعروف أن أول التجارب في تاريخ علم النفس التجريبي كانت في ألمانيا عام 1879م. وهكذا استمر مشروع هارون متصلاً متوجاً لمسيرة مدرسة الخرطوم النفسية وليضع بصماته البارزة في تاريخ هذه المدرسة ليكون ثالث ثلاثة تميّزت مساهماتهم في إثراء مدرسة الخرطوم كميّاً ونوعياً، وهم أساتذته البروفيسور مالك بدري رائد التأصيل الشهير والأب الروحي لعلم النفس في السودان، والبروفيسور الزبير بشير طه صاحب الكتاب الشهير علم النفس في التراث العربي الإسلامي، وقد مثل هارون تلميذاً نجيباً استلهم بنبوغ باهر خصائص هذه المدرسة ليضيف إليها فصلاً مميزةً، منفتحاً بها على كافة التجارب الإقليمية والعالمية وأهما تجربة اليابان.

تلك هي قبسات من معالم المشروع الفكري للبروفيسور الغائب — رده الله سالماً — حاول فيها الكاتب بحكم تتلمذه على يديه وصداقته الحميمة معه أن يوطّر ملامح تلك المسيرة متقصياً أبرزها، آملاً بذلك أن يلقي بعض الضوء على بعض جوانب ذلك المشروع وأن يفتح بذلك الباب لدراسات متعمقة في مسيرة هذا الرجل الاستثناء، وهي مسيرة جديرة بالبحث والدراسة، رده الله سالماً ليكمل هذه المسيرة العامرة بالنجاح والإنجاز.

الحلقات القادمة:

1. الخليفة عناصر النشأة والتكوين.
2. الخليفة الرجل والتحدي.
3. الخليفة النبوغ والتفوق.
4. الخليفة عاشق القمم العصية.
5. الخليفة صائد الجوائز الماهر.
6. الخليفة وتحدي النشر المنوي.
7. الخليفة والحوار النفسي الثقافي.
8. الخليفة وملامح الفجر الجديد.
- 9.

*** **

Arabpsynet

Subscribe To APN

<http://www.arabpsynet.com/Subs.asp>

Arabic Edition

<http://www.arabpsynet.com/defaultAr.ASP>

English Edition

<http://www.arabpsynet.com/defaultEng.ASP>

French Edition

<http://www.arabpsynet.com/defaultFr.ASP>